

مريم

مريم عن الفرنسية من الرسائل البائية

في سنة ١٢١٤ هـ (١٧٩٩ م) كان في الناصرة رجل نصراني اسمه يوسف . وكان قد تزوج امرأة كنعانية اسمها مريم . فبارك الله اقترانهما وولدت مريم بتمسكين ابنه حسنة تخبطل البدر بطلعتها البية . ولم يجد لها ابوها من الاحتفاء ما يذكر هذا الجلال البديع ، والمنظر النسيم ، الا « مريم » تلك العذراء التي قضت بضعة اعوام في هذه البليدة عنها فساها باسمها . فحق ان يقال عن كل من هين المريمين :

ولو كانت النساء ككل هذي لفضلت النساء على الرجال .

نشأت مريم بين اترابها وهي يتيمة كاليدى بين الكواكب الزاهرة ، لان جلالها لم يكن الا امراً لاشان له بالنسبة الى ما انصفت به من الاوصاف التي تجعل الابنة في مقام رفيع من الحظوظ . عند الناس بحسن الآداب وتوخي الفضائل والمبرات ، حتى تاهزت السنة الثانية عشرة من عمرها ، ففقهها الاب انطونيو رئيس دير الرهبان الفرنسيسيين اصول الدين واعدتها لتناول الاول .

في أثناء تعليمها مبادئ الديانة لاحظ رئيس دير اللاتين ذكاء هذه الامة ما ميزها عن سائر اترابها . ففرض على والديها ان يعلموها القراءة والكتابة . ففرضوا بهذه البشرية فرحاً لا مزيد عليه . واما مريم فكانت تطير من فرحها لما صرفت ما نواه ابواها ومرشدها . لانها كانت تقول لمن يسمعها : ما سعد حظي اذا تمكنت من مطالعة

الاعجيل الحليل كما امكنتي ذلك . وما اعظم فرحى حينما اتبع الكاهن
عند تلاوته التزييل العزيز وانا اسمع كلام الله وقت القداس في الكنيسة
التي هي بيعة مريم ومحل تبشيرها باجل النشأ .

ماضت ثمانية اشهر على ابتدائها بالدرس الا وابتقت مريم اللغة
العربية والايطالية والاسبانية قراءة وكتابة . فهل بعد هذا
الدليل الواضح مايقى شكاً في توفد فؤاد هذه الغادة الفيداء الغربية
الذكاء .

وان خفيت كانت لعينيك قرّة وان تنبذ يوماً لم يعمك عارها
من الحفريات البيض لم تر شقوة وفي الحسب المحض الرفيع نجارها
فلما رأى الاب انطونيو هذه الابنة تتلقف من فيه العلم تلقفاً ،
اوقفها على وقائع التاريخ وعلى علم تقويم البلدان ومخططاتها فشئت شيئاً
منها . وكانت كلما تعلمت بعض العلوم يتسع لعينها افق المعارف وتتبدط
تخوم افكارها وتمتد الى ابعد الاصقاع . والخلاصة انها كانت تزبد علماً
وفضيلة كلما تقدمت سناً . لان العناية الصمدانية كانت قد جادت عليها
بعوارف العقل والذكاء فزاد فؤادها توفداً المتابعة على الدرس وتعاطى
اطراف العلوم . ولما بلغت البنية الخامسة عشرة من عمرها اصيبت
ابنة يوسف خوفاً من اشهر الخود بمضاء ذكاتها وصدق اطلاعها على
جل معارف القوم .

ذلك هو وصف مجمل ما ازدان به عقلها الثاقب واما محاسنها
الظاهرة فلا يصورها قلم ولو كنت مصوراً ماهراً او كاتباً جليلاً .

على انه مالا يدرك كله، لا يترك جله، فكان قوامها خطوط بان . في قراح من
أرض لبنان . وشعرها الاسود الفاحم، يضحى كل شاعر ناظم :
اضفيران على بياض خدودها . او في كتاب الحسن سلسلتان
اوليتا العبدن اقبلتا معا . او من قصائد مملكتان
وكان ثمرها عبارة عن نضدين من اللآلئ الغوالي . يزيد ماها
بريقاً برمان من الارجوان . اما حياها فكان آية في حسن التقطيع كأنه
بيضة غضة، او بيضة في دروخة، ولونه لون السبل اذا نضج . وكان
نوبها الازرق . يشبه حسناً . كيف وقد :

لبست حينئذ النور بنفسجاً يا ربنا منها عن الميمان
قد حل لون الحسن في لون الهوى الذي عذرى بالافرنج والسرمان
وكان يحلها ازار يبرزها للناس قرأ من الافكار، لا سكتاً من سكان
هذه الديار، واما آدابها فكانت ايضاً من هذا الطرز العالي البديع قائما
كانت حليلة، وديرة كالحمامة، رقيقة الشعور والقلب، نفوس من طرفها
اذا مشيت، ومن صوتها اذا تكلمت، واذا جدت عليها بقطرة من الندى،
كانت لك اشكر من بروقة، وهي مع ذلك في ابد غاية من السذاجة
وفي اعلى مقام من الطهر والصفاء . وهذه المتأقبات والحصال الحميدة
كانت تزيدها حسناً وبهاءً . ولهذا كان اذا نظرها الناظر يظن انه يرى
ملكاً من التور، او قادة من حور القصور . وكل الناس كانوا يقدرونها
حق قدرها لهذه المحاسن الفريدة التي نحت بها، الا هي قاتها كانت تجهل
نفسها .

وهل احتاج بعد هذا التفصيل المجل إلى ان أقول لك ان اهل الناصرة من مسلمين ونصارى كانوا يمزونها اعظم الاعزاز، ويحبونها الحب العذرى، فوق ما يدور في الخلد .

وكان يوسف ومريم يشكران العناية الالهية على كونها جادت عليهما بهذه الخريدة الفريدة، بل يئمة الدهر الوحيدة، وكانا يطلبان الى الله ان يصونها من كل شائبة لتكون سعيدة في الدارين .

وسكان من عادة مريم الغادة ان تجمع في بيت اهلها اترابها الناصريين، وتفقههم اصول الدين على الاسلوب الذي تلقته من الاب انطونيوس . وكانت تفعل هذا الفعل عن طيبة خاطر وبغيرة تنقد اقاربا . وكانت قيدهم اعظم فائدة، لما كانت تلقيه عليهم من التسروح لتؤيد بها تلك الاصول الدينية في القلوب النضرة، وكل ذلك يخرج من فيها عفواً بدون عمل او تصنع لانها كانت تتكلم عن كثرة حبها لله عز وجل لاغير . وسكان تلك النفوس الناشئة تتلقى تلك الافادات تلقى الوردة العطشى لدى الصباح . وتفعل فيها الفعل المكين .

ولو رأيت مريم بين اترابها لقلت هذه اربعة لبنان بين سائر اشجار الجنان . اذ انها كانت تقضى معظم نهارها في تعليم بنات الناصرة الحياطة والتطريز، ومطالعة الكتاب العزيز، وخدمه كنيسة القديسة مريم . وبما كان يطيب لها مناجاة العذراء في مصلاتها في مغارة البشارة، حتى ما كانت ترى الا هناك كلما دخلت تلك البيعة، لان هناك ظهر ملاك الرب لابنة يواكيم ليبشرها بانها تلد لاعالم مختص الامم وان هذا لم يرد ذلك

الموطن مزيئاً مثلما كان يرى في عهد تردد الغادة اليه ولا سيما انها تشهد فيه النظافة فوق مألوف العادة .

ومن جملة ما كان يذكر لهذه الابنة الصالحة في هذا المعبد انها كانت طرزت سراً ابيض بقي مدة طويلة حول دمية العذراء مريم الموضوع على الهيكل ، وكانت اواني البلور الموضوع على المذبح مملوءة ازهاراً واوراداً وانواع الرياحين ، تحفظها بيديها الرخصتين على منعطف هضبات الناصرة فيما كانت ترنم بصوتها الشجي انواع الترانيم العذبة ، ونور القناديل الضئيل يحيل للسامعات اترابها انهن يفردن معها تفريدهم الزار ، عند ميثاق الانوار . واغلب تلك الاحسان الشجية كانت طلبة العذراء وسائر الاناشيد التي يدور موضوعها على محاسن العذراء مريم وفضائلها . وكان كل من يسمع صوتها الزجل ويشاهد محاسنها الفتانة يندفع الى ان يقول رغماً عنه ما سمع يقال عن سميتها العذراء الحسنة : يا نجم الصبح ، ووردة سرية ، وملكة العدل ، وهيكل الحكمة ، ادهي لنا .

ونحن لا نريد ابدأ ان نقيم مناسبة بين هذه الابنة الالية ، وبين سميتها العذراء النبية . فكلما نقوله هو من باب الخيال ، بالنسبة الى المثال . او من باب الصورة الى الحقيقة وهل من مناسبة بين ابنة خاتمة الذكر فقيرة حقيرة وبين تلك البكر التي سحق تحتها الطاهرة راس الحية الجهنمية . واعادت مجد ابن آدم الساقط الى سابق عمره ، وسامق فخره . هل من مقابلة بين ابنة هي كالزهرة ابنة اليوم الذابضة الزائلة

وبين تلك الزهرة التي يوضع منها روح الحياة الخالدة . هل من مفاضلة بين فادة لا تعرف الا في قرية وبين عذراء طبقت الدنيا شهرتها وردد اسمها الافواه وارتفع صرشتها في اعلى السماء . من هي مريم ابنة يوسف بالنسبة الى مريم ابنة يواكيم . ابنة يوسف فقيرة حقيرة . وابنة يواكيم غنية ثرية . وعن كثر فضيلة كلتيهما اتكلم لا عن كثر الاموال القليلة . ابنة يواكيم رمزها القمر ، لان القمر يسلي بانواره الذهبية من ينوس في البحار الفكرية او يفرق في لجج الاحزان المضنية . ابنة يواكيم رمزها الزهرة ، ذلك النجم الذي يشع ضياء يحلو صدى القلب وينعش القواد . ابنة يواكيم رمزها الشمس لانها بنور هداها ومحياها تطرد ظلمات الضلال الى حيث لا رجوع منه .

نعم وان لم يكن مناسبة بين الزهرتين الزاهرتين ، الا اننا نقول انه يوجد بعض الشبه بينهما : فابنة يوسف ولدت كما ولدت مريم العذراء في وادي الناصرة . وكانت تقضى ايامها كالبتول الام في البيع والكنائس متذكرة في عملها هذا تلك التي قد تسمت باسمها الكريم العظيم . — ان ذوق ابنة يوسف واشغالها وعوائدها تنظر الى مثل تلك الاعمال التي كانت تأتيها ابنة يواكيم . هذا فضلاً عن ان جمال هذه الابنة وسناءها وبهاءها وخفرتها يذكرنا بحسن تلك البتول التي قيل عنها : انها بهية نهر الاعين والتي قال عنها القديس ديونيسيوس الاروباجي : اني لولا علمي انه لا يوجد الا الاله واحد لمسجدت للعذراء سجودي لمعبودة .

اصفر الحصاد ست عشرة مرة على جبال الجليل وفي اوديته منذ
 ولدت مريم بنت يوسف وبعد ذلك جاء الطاعون تلك الطامة الكبرى
 التي تحفر القبور في بلادنا الشرقية وتجرف النفوس جرفاً وتلقيها في
 المدافن الفاغرة أفواهاها . ومن جملة من اخذه سيل الموت او احترقه
 سيفه ام مريم . فكانت هذه الوفاة بمنزلة ساعة نزات على هذه المظلومة
 لانها كانت تحب والدنها محبة لا توصف بعد هيامها بالله وبالمنذر آء مريم .
 بيد انها لما كانت متمسكة بعروة الدين الوثيق كل التمسك سلمت امرها
 بيد خالقها منكلة على غايته ، وعلى ان امها انتقلت من دار القرار الى
 دار القرار ، وقد فازت بالنعيم المقيم . *كاتبه عبد الحميد بن عبد الحميد*
 وبعد ان مضى على هذا الحادث المشؤوم سنة اشهر وتصرفت
 ثلاث ليال بعد عيد جميع القديسين تذكرت مريم احوال الموت وفظائمه ،
 وتجددت قروح قلبها المصاب بانواع الآلام ، لان في تلك الايام
 تذكر التصراية جميع موتاهها وتستمطر البركات على قبورهم .
 ومن غريب الاتفاق ان وجه السماء العاصي السافر في اغلب بلادنا
 الشرقية امتقع لونه ، ونفضن جبينه ، واكفهر سحابه ، وشاغل ضبابه .
 فضاقت الافق على منفسحه ، واحتجبت الشمس كأنها لم تحسكن شارقة .
 وما زاد في هذا المنظر حزناً وكآبة تنثر اوراق الاشجار . وسكوت
 الاطيار . وهبوب الريح . بين الادراج . هبوباً تتلاعب فيه الاوراق
 اليابسة . وتسمعك اصواتها الماثلة كأنها حفيف الانى . اوسحق الملقى .
 لها تابع